أخرج البخاري عن ابن مسعود ﷺ قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد! إنا نجد: أن الله يجعل السموات على إصبع والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع، فيقول: أنا الملك.

فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٦٧﴾[الزمر: ٦٧].

لا يعلم ما يستحق إلا هو...!

ولا يحيط بعلمه سواه...!

ولا يقدر قدره إلا هو...!

ولا يحسن الثناء عليه غيره...!

البيان والبلاغة والتعبير.. تعلن التقصير...!

والحياء يملأ فؤادنا ونحن في هذه الساعة نريد أن نشدو بأوصاف ملك الملوك! ولنا الشرف أن نمرغ أنوفنا في التراب لجلاله وعظيم سلطانه ﷻ، وأن تشرف ألسنتنا وأقلامنا بمديحه، وإن قدسناه أو سبحناه أو مجدناه؛ فهذه منة منه علينا ﷻ.

وَمَا بَلَغَ المُهْدُوْنَ نَحوَكَ مِدْحَةً

وَإِنْ أَطْنَبُوْا، إِنَّ الَّذِي فِيكَ أَعْظَمُ

❐ في ظلال اسم الملك:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ﴾[الحشر:٢٣].

فربُّنا ﷻ هو الذي ينفذ أمره في ملكه، وهو مالك الملك كله، وهو تام الملك، وهو مالك يوم الدين، وهو مليك الخلق، ولا مليك فوقه، ولا شيء إلا دونه، متصرف بجميع الأشياء، فلا ممانع ولا مدافع له ﷻ.

مَلِكٌ عَزِيزٌ لاَ يُفَارِقُ عِزَّهُ ... يُقْضَى وَيُرْجَى عِنْدَهُ الغُفْرَانُ

مَلِكٌ لَهُ ظَهْرُ الفَضَاءِ وَبَطْنُهُ ... لَمْ تُبْلِ جِدَّةَ مُلْكِهِ الأَزْمَانُ

مَلِكٌ هُوَ المَلِكُ الَّذِي مِنْ حِلْمِهِ ... يُعْصَى بِحُسْنِ بَلاَئِهِ وَيُخَانُ

يَبْلَى لِكُلِّ مُسَلْطَنٍ سُلْطَانُهُ ... وَاللهُ لاَ يَبْلَى لَهُ سُلْطَانُ

فالملك الحقيقي لله ﷻ وَحْدَهُ؛ لا يشاركه فيه أحد، وكل من ملك شيئًا فإنما هو بتمليك الله له، قال ﷺ: «لاَ مَالِكَ إِلاَّ اللهُ ﷻ»، وفي رواية:

«لاَ مَلِكَ إِلاَّ اللهُ»[أخرجهما مسلم]، ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾[آل عمران:٢٦].

فربُّنا ﷻ هو المالك لخزائن السماوات والأرض، بيده الخير، يرزق من يشاء.

وهو ﷻ المالك للموت والحياة والنشور، والنفع والضر، وإليه يرجع الأمر كله.

يتصرف في ملكوته كيف يشاء، كل يوم هو في شأن! صح عنه ﷺ أنه قال: «مِنْ شَأْنِهِ: أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبًا، وَيُفَرِّجَ كَرْبًا، وَيَرْفَعَ قَوْمًا، وَيَخْفِضَ آخَرِينَ»[حديث حسن. رواه ابن ماجه].

وهذا ملك الله ﷻ يؤتيه من يشاء: ﴿وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾[البقرة:٢٤٧].

جاء في «مسند الإمام أحمد»: قال رسول الله ﷺ: «لاَ تَسُبُّوا الدَّهْرَ! فَإِنَّ اللهَ ﷻ قَالَ: أَنَا الدَّهْرُ، الأَيَّامُ وَاللَّيَالِي لِي؛ أُجَدِّدُهَا وَأُبْلِيهَا، وَآتِي بِمُلُوكٍ بَعْدَ مُلُوكٍ»[حديث صحيح. وأوله في «صحيح مسلم»].

أَيْنَ المُلُوكُ ذُوُو التِّيجَانِ مِنْ يَمَنٍ ... وَأَيْنَ مِنْهُمْ أَكَالِيلٌ وَتِيجَانُ

أَتَى عَلَى الكُلِّ أَمْرٌ لاَ مَرَدَّ لَهُ ... حَتَّى قَضَوْا فَكَأَنَ القَوْمَ مَا كَانُوْا

❐ الشيطان سول لهم..

لما أعطى الله ﷻ فرعون الملك؛ ظن أنه المالك الحقيقي، فتكبر وتجبر وظلم الناس؛ حتى وصل به الحال أنه: زعم لنفسه الملك والألوهية! ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[القصص:٣٨]، فأهلكه الله ﷻ، وجعله عبرةً لملوك الأرض إلى قيام الساعة؛ حتى لا يطغيهم الملك وينسيهم أصلهم وضعفهم وميعادهم.

ومع أن الملوك لهم شبهة ملك في الحياة الدنيا؛ فهم يملكون الضياع والقصور والبساتين والذهب والفضة، فإنهم بين خيارين: إما أن يزول عنهم، أو يزولون عنه، فهو ملك زائل، وعارية مسترجعة..

فذكرهم الله ﷻ بأن مرجعهم إليه؛ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾[المائدة:١٨].

ونُهي النبي ﷺ عن التسمي بـ "ملك الملوك"، جاء في «الصحيحين»: أن رسول الله ﷺ قال: «أَخْنَعُ الأَسْمَاءِ عِنْدَ اللهِ: رَجُلٌ تَسَمَّى بِمَلِكِ الأَمْلاَكِ».

❐ مالك يوم الدين..

يوم القيامة يأخذ الله ﷻ السماوات بيمينه والأرض بيده الأخرى؛ كما قال ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ

﴿ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾

[الزمر: ٦٧].

جاء في «الصحيحين» عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقْبِضُ اللهُ ﷻ الأَرْضَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ! أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ؟».

وجاء في «صحيح مسلم» من حديث عبد الله بن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَطْوِي اللهُ ﷻ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ اليُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ! أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الأَرْضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ! أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟».

وفي يوم القيامة: ينادي الرب ﷻ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾؟ فلا يجيبه أحد! فيجيب الحق نفسه بنفسه: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾[غافر:١٦].

❐ ملكه تام:

ومع أن الله ﷻ هو الملك، وهو غني عن عبادتنا؛ لكن من جميل إحسانه وامتنانه على عباده: قرن اسمه: (الملك) ببعض أسمائه؛ لتطمئن النفوس وتشتاق للقائه، قال ﷻ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾[الفاتحة:٣-٤]، وقال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ

﴿إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ﴾[الحشر:٢٢-٢٣]، والله ﷻ يخبرنا بأن المُلْك لا يحسن ولا يكمل إلا مع الإحسان والرحمة؛ فهو ﷻ الملك الرحيم.

ومُلْكُ ربِّنَا ﷻ منزه عن النقائص؛ ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾[الجمعة:١].

ولما كانت ملوك الأرض تصيبهم النقائص من غرور، واسترسال في الشهوات، وظلم وجور؛ فالله ﷻ أخبرنا بأن ملكه تام، مجتمع فيه كل صفات الكمال الحسان؛ ولهذا كان الرسول ﷺ إذا سلم بعد الوتر قال: «سُبْحَانَ المَلِكِ القُدُّوسِ»، ثلاثًا، ويرفع صوته بالثالثة. [حديث صحيح. رواه النسائي].

والواجب على العبد: أن يحمد الله على ملكه ورحمته، وأن يثني عليه على الدوام؛ قال الله ﷻ: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾[التغابن:١]، فهو محمود في ملكه، فإن الملك بلا حمد يستلزم نقصًا، والحمد بلا ملك يستلزم عجزًا؛ والحمد مع الملك غاية الكمال والجلال.

ومن جلال ملكه: أنه يجير من استجار به، ولا يقدر أحد أن يجير ويحمي من أراد الله هلاكه؛ ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٨﴾[المؤمنون:٨٨] .

يَا مَالِكًا هُوَ بِالنَّوَاصِي آخِذُ ... وَقَضَاؤُهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ نَافِذُ

أَنَا عَائِذٌ بِكَ يَا كَرِيمُ وَلَمْ يَخِبْ عَبْدٌ بِعِزِّكَ مُسْتَجِيرٌ عَائِذُ

❐ يا من لا يزول ملكه!

قال أهل السير: "لما بنى هارون الرشيد قصره، ولم ير مثله قط في الجمال في زمانه! دخل الناس يهنئونه، ودخل معهم أبو العتاهية؛ فقام وأنشد:

عِشْ مَا بَدَا لَكَ سَالِمًا فِي ظِلِّ شَاهِقَةِ القُصُوْرْ
يُسْعَى إِلَيْكَ بِمَا اشْتَهَيْتَ لَدَى الرَّوَاحِ وَفِي البُكُوْرْ
يُجْرَى عَلَيْكَ بِمَا أَرَدْتَ مَعَ الغُدُوِّ مَعَ البُكُوْرْ
فَإِذَا النُّفُوْسُ تَقَعْقَعَتْ فِي ظِلِّ حَشْرَجَةِ الصُّدُوْرْ
فَهُنَاكَ تَعْلَمُ مُوْقِنًا مَا كُنْتَ إِلاَّ فِي غُرُوْرْ

فبكى هارون حتى وقع على الأرض، ولم يمض عليه شهر واحد حتى أصبح في عداد الموتى".

هارون!.. الذي قال للسحابة: أمطري أنى شئت؛ فإن خراجك سيصل إلي؟! هارون.. الذي كان يحج عامًا ويغزو عامًا؟!

وعبد الملك بن مروان -حاكم العالم الإسلامي- لما أتته سكرات الموت؛ سمع غسالاً حول قصره يغني في سعادة وهناء! فقال عبد الملك: يا ليتني كنت غسالاً! يا ليتني ما عرفت الملك والخلافة! ثم مات.

وآخر يقول: يا من لا يزول ملكه؛ ارحم من زال ملكه، ولما سمع سعيد

ابن المسيب هذه الكلمات رد عليه قائلاً: "الحمد لله الذي جعلهم يفرون إلينا في سكرات الموت، ولا نفر إليهم".

❐ اقرع باب الملك!

أيها القارئ! المرض يزول، والمصاب يحول، والذنب يغفر، والدين يقضى، والمحبوس يفك، والغائب يقدم، والعاصي يتوب، والفقير يغتني.. وهذه جميعها بيد ملك الملوك ﷻ، فليكن الله ﷻ ملاذك ومعاذك ورجاءك في كل ساعة، وفي كل حين؛ وخاصةً في آخر الليل؛ فإن الله ﷻ ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا وينادي: «أَنَا المَلِكُ، أَنَا المَلِكُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ،؟ فَلاَ يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُضِيءَ الفَجْرُ»[آخرجه مسلم].

ونبينا ﷺ -وهو أعلم الخلق بالله وأشدهم له عبادةً- حثنا أن نردد على الدوام الإقرار بملك الله ﷻ بعد الصلوات مباشرةً، وعند الفزع من النوم ليلاً، وأن يكون ذلك من ضمن أورادنا في الصباح والمساء، وبعد العودة من السفر، ثم إن كررت ذلك مائة مرة في يومك كنت من الفائزين.

صح عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ؛ كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا

جَاءَ بِهِ؛ إِلاَّ أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ»أخرجه البخاري ومسلم.

اللهم يا مالك يوم الدين! اجعل خير أعمارنا آخرها، وهون علينا الحساب؛ يا رب العالمين!